الإعلان الإسلامي المفترى عليه

تأليف: على عزت بيجوفيتش

ترجمة وعرض: محمد يوسف عدس

"الإعلان الإسلامي" هو الكتاب الذي آثار ضجة إعلامية كبرى في يوغسلافيا ترددت صداها في أنحاء أوروبا كلها، وبسبب هذا الكتاب حوكم علي عزت بيجوفيتش وزج به في السجن، ورغم إعادة المحاكمة وسقوط التهم التي وجهت إلى علي عزت إلا أن هذا الكتاب ظل سيفاً مسلطاً لا على رقبة مؤلفه فحسب بل على المسلمين في البوسنة وعلى الإسلام كعقيدة وشريعة ونظام. واستمرت الحملات الإعلامية الصربية تتصاعد ضد علي عزت لترسم له صورة مقولبة. باعتباره "آية الله الأبيض الملعون"، الذي ظهر في قلب أوروبا المسيحية. ولترويج هذه الصورة أخذ الكتاب وأجريت على نصه تعديلات وأضيفت إليه عبارات وكلمات لم تكن موجودة في الأصل. ثم وزع بحماس في بلجراد وزغرب كدليل على دعوته للجهاد، والجهاد عندهم معناه إعلان "الحرب المقدسة على المسيحية". وتسرب الكتاب خارج يوغسلافيا فالتقطته جماعات نشطة، وقامت بترجمته إلى اللغات الأوروبية المختلفة في محاولة مشبوهة لإثارة جو من الذعر بين المسيحيين، حيث ربطت بين مؤلفه وبين بعض المراكز الإسلامية في العالم وبخاصة إيران.

ويؤكد الصحفي البريطاني "إد فوليامى" أن الكتاب قد تعرض نصه للتعديل أو بالأحرى "التشويه" .. والمقصود بهذا التشويه أن تتوافق محتويات الكتاب مع الصورة الإعلامية "المقولبة" عن صاحبه، وذلك لحبك سيناريو التآمر الإسلامي على الغرب المسيحي. وكانت هذه أول مرة أصادف فيها خلال قراءاتي كاتباً غربياً يشير إلى ما لحق بكتاب: "الإعلان الإسلامي" من تحريف. ثم ازداد يقيني بمسألة التحريف بعد الاطلاع على شواهد أخرى: **فقد أشار "هـ. ت. نوريس" في كتابه: "الإسلام في البلقان" إلى أن الكتاب الذي اطلع عليه في لغته الأصلية يبلغ نحو خمسين صفحة، بينما تقترب نسخ أخرى من ثمانين صفحة.**

ولقد أتيحت لي فرصة أن أطلع على نسخة من الطبعة الانجليزية المحرفة التي تتداولها بعض الجماعات في لندن ووجدت أنها مزودة بمقدمة تنطوي على أفكار مسمومة وإيحاءات خطيرة.

ولم يشأ صاحب المقدمة أن يعلن عن اسمه. والنسخة نفسها خالية من بيانات النشر، فاسم الناشر مجهول وكذا سنة النشر ومكانه، ومثل هذه الكتب الغفل التي تظهر في الأسواق

بين حين وآخر تذكرنا بالمطبوعات التي تروجها أجهزة المخابرات لإشاعة أفكار أو معلومات كاذبة لإغراض دعائية معينة.

تقول المقدمة: "من الواضح أن مهمة المسلمين المقدسة كما يراها علي عزت هي تطبيق الموقف الإسلامي على العالم .."

وفي موقع آخر من المقدمة نقرأ: ولا ننسى أن الرسالة البليغة للخومينى كانت "لا غرب ولا شرق .. الإسلام هو الحق".

ويمضي صاحب المقدمة المجهول فيعلق قائلاً: "وكانت هذه الفكرة هي التي عبر عنها علي عزت في كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب"، ثم ترجمها بلغة سياسية عميقة في كتابه "الإعلان الإسلامي" وذلك بقصد إقامة الدولة الإسلامية والتوسع فيها لتحقيق طوبيا (مدينة فاضلة) على كوكب الأرض". ثم ينتقل الكاتب المجهول في مقدمته لتوجيه اللوم إلى الدول الكبرى التي اعترفت بدولة البوسنة ومكنتها – على حد قوله – من الانضمام إلى الأمم المتحدة فيقول: "في الوقت الذي تكسب فيه دولة البوسنة والهرسك الاعتراف الدولي لا يزال يقف على رأسها (زعيم مسلم) هو علي عزت بيجوفيتش الذي استطاع أن يحصل على دعم أكبر القوى العالمية المؤثرة .. هذه القوى هي نفسها التي يصفها علي عزت في كتابه بأنها "قوى الوثنية الكبرى في العالم" .. وأخيراً تختم المقدمة بما يشبه قرع الطبول في نهاية سيمفونية عنيفة فتقول محذرة: "إنه لمن التهاون المفرط وعدم الاكتراث بالمسئولية أن تقرأ هذا (المنفستو الإسلامي) كنوع من القصص الخيالي!" ولا ينسى الكاتب الذكي في ثنايا مقدمته أن يذكرنا بأن المؤلف (يقصد علي عزت) لم يتراجع عن المعتقدات التي ضمنها في كتاب: "الإعلان الإسلامي"، وذلك لكي يغلق الطريق تماماً على أي فكرة قد تخطر على بال القارئ بأن الرجل ربما كان هكذا في السبعينيات ولعله تاب الآن ونحن في التسعينيات..!

وهكذا رأينا نصاً يحرف في بلجراد ثم يفسر في لندن بمعرفة كاتب مجهول، وذلك يركب صاحبه على قالب "خمينى" يستنكره الفكر الغربي ويدينه بالعداء والعدوانية تجاه الحضارة الغربية.

ويصف الكتاب بأنه "المنفستو الإسلامي" ليذكر القراء بشيء آخر كريه عندهم وهو "المنفستو الشيوعي" والدلالة هنا واضحة.

ويمضي الكاتب المجهول فيسطح الأفكار الثرية المبدعة التي عالجها علي عزت في كتابه الفذ "الإسلام بين الشرق والغرب" ويختزلها إلى شعار كانت تردده الجماهير في بداية الثورة الإسلامية في إيران، ولا شك أن إقحام هذا الكتاب بالذات في غير سياقه يؤكد هدف

التشويه المتعمد للكتاب في ذهن القارئ. وينسب الكاتب الكذوب إلى علي عزت أنه "يهدف إلى تطبيق الموقف الإسلامي على العالم" والتعبير فيه غموض ولعله يقصد قهر العالم على تبني الأيديولوجية الإسلامية مثلما حاول الغرب فرض ثقافته وتدمير ثقافات الشعوب في العالم الثالث .. ولكن شيئاً من هذا لم يرد في كتاب "الإعلان الإسلامي" ولا في كتاب آخر لعلي عزت.

وأخيراً تنسب المقدمة إلى علي عزت أنه وصف القوى العالمية الكبرى بأنها قوى الوثنية ولكن هذا الوصف أيضاً لم يرد في "الإعلان الإسلامي" ولا في أي أثر فكري آخر لعلي عزت..! وهكذا يتضح الهدف الخبيث من المقدمة المشبوهة للكاتب المجهول.

- فماذا يقول الكتاب والمفكرون الغربيون المنصفون عن كتاب "الإعلان الإسلامي"؟

يقول "هاري ثيرلويل نوريس" الأستاذ بجامعة لندن: "إن هذا الكتاب أبعد ما يكون عن الأصولية فهو يحدد موقف المسلمين من العالم المسيحي تحديداً منطقياً واضحاً حيث يقول علي عزت:

نحن بالنسبة للمسيحية نفرق بين تعاليم المسيح وبين الكنيسة .. أما تعاليم المسيح فهي وحي من الله لحق به تحريف في بعض مواضعه، وأما الكنيسة – وقد أصبحت مؤسسة قائمة على نظام كهنوتي هرمي ذي مراتب ودرجات – فقد أصبحت بتنظيمها وسياساتها وثرواتها ومصالحها لا ضد الإسلام فحسب بل ضد المسيح نفسه .. وإن أي شخص يراد منه أن يحدد موقفه تجاه المسيحية فمن حقه أن يسأل: هل المقصود بالسؤال تعاليم المسيح أم محاكم التفتيش؟ ذلك لأن الكنيسة خلال تاريخها كانت تتأرجح دائماً بين هذين القطبين .. فكلما اقتربت من التعبير عن تعاليم الإنجيل الأخلاقية كلما كانت بعيدة عن محاكم التفتيش .. ومن ثم أقرب إلى الإسلام .. وإننا نقدر الاتجاهات الجديدة التي أعلنها مؤخراً مؤتمر "الفاتيكان" حيث نرى فيها اقتراباً من المعتقدات المسيحية الأصيلة .. ومن الممكن – إذا أراد المسيحيون – أن يشهد المستقبل فرصة للتفاهم والتعاون بين الديانتين العظيمتين لصالح الشعوب ولصالح الإنسانية بصفة عامة خلافاً لما كان يحدث في الماضي من معارك بدافع من التعصب والصراع الأحمق".

أما "تويل مالكوم" فقد خصص عدداً من الصفحات في كتابه (البوسنة: تاريخ موجز) لعرض وتحليل كتاب الإعلان الإسلامي دحض فيه الاتهامات الموجهة إليه بمنطق قوى واضح حيث يقول:

"هذا الكتاب بحث عام في السياسة والإسلام، يتجه إلى العالم الإسلامي بصفة عامة فليس مخصصاً للبوسنة وليس فيه أي ذكر لها على الإطلاق .. ويبدأ علي عزت بعنصرين أساسيين هما المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية .. وهو يؤكد أنه لا يمكن إقامة حكم إسلامي إلا ببناء مجتمع إسلامي كأساس يقوم عليه هذا الحكم .. وهذا المجتمع بدوره لا يمكن أن يتوافر إلا إذا كانت الأغلبية المطلقة من السكان مسلمين مخلصين لإسلامهم ممارسين لشعائره وملتزمين بأخلاقياته" وبدون هذه الأغلبية يتقلص النظام الإسلامي إلى مجرد قوة أو سلطة عارية .. ومن السهل حينئذ أن يتحول إلى نظام استبدادي" ويعلق "مالكوم" على ذلك قائلاً: "هذا الشرط يلغى تماماً فكرة إقامة حكومة إسلامية في البوسنة حيث إن المسلمين فيها لا يشكلون الأغلبية بل هم أقلية (45% من السكان)". ثم يمضي **"مالكوم"** قائلاً: "إن القضايا التي يناقشها علي عزت في معظم الكتاب تتعلق بطبيعة النظام السياسي الإسلامي ولا تنطبق على حالة البوسنة .. وعندما يقول علي عزت مثلاً: "لا يوجد سلام ولا تعايش بين العقيدة الإسلامية وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية اللاإسلامية (وهي عبارة طالما اقتبسها الصربيون في دعايتهم السياسية المضادة) عندما يقول هذا فإنه يشير إلى دول بها مجتمع إسلامي .. وحجته أن هذا المجتمع لن يقبل أن تفرض عليه مؤسسات "ضد إسلامية" .. ثم يمضي قائلاً: "ولا يكاد يجد القارئ في هذا الكتاب شيئاً ينطبق على الوضع السياسي للبوسنة سوى فقرة واحدة هي: "إن الأقليات المسلمة في مجتمعات غير إسلامية – طالما أنهم يتمتعون بالحرية الدينية وبالحياة والنمو الطبيعيين – فإنهم لابد أن يكونوا مخلصين ملتزمين بتنفيذ واجباتهم تجاه هذه المجتمعات، إلا في حالة الإساءة إلى الإسلام والمسلمين".

وينتقل "مالكوم" ليناقش تهمة "الأصولية" فيقول: "إن بعض العبارات التي سيقت في هذا الكتاب ووصفت بأنها (أصولية) سنجد أنها عبارات تقليدية ثابتة في العقيدة الإسلامية لا يمكن لمسلم لدينه أن ينكرها" .. فقد كتب علي عزت: "لابد للدولة الإسلامية أن تحرم الخمر والدعارة والإباحية" وحجته في هذا أن الإسلام ليس مجرد مجموعة من المعتقدات الدينية الخاصة ولكنه طريقة حياة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية .. ثم إنه يؤكد على أن الأخوة بين المؤمنين بالعقيدة الإسلامية (أو الأمة) تتجاوز الحدود القومية .. وليس في هذا كله ما يبرر الوصف بالأصولية .. بل إن مصطلح (الأصولية) نفسه مصطلح مائع وانطباعي (سهل القولبة) .. ولا يستخدمه أساتذة الدراسات الإسلامية الذين يعنيهم أن يفرقوا بين أنواع من الحركات الإسلامية التي تندرج في موقفها بين المحافظة والاعتدال والتطرف والعداء للحداثة .. ولكننا نجد السياسيين والصحفيين يستخدمون (الأصولية) لتجمع عدداً من الصفات

من بينها الجمود والتطرف. أما الزعم بأن إقامة السلطة الإسلامية كغاية يبرر استخدام أي وسيلة ممكنة. فإن علي عزت يرفض بوضوح تام هذا الاعتقاد .. بل يندد بفكرة الاستيلاء على السلطة بالقوة بحجة بناء المجتمع الإسلامي من فوق .. وحجته الأساسية هو أن المجتمع الإسلامي لا يمكن بناؤه إلا في مجتمع غالبيته العظمى من المسلمين وأن هذا البناء لا يتم إلا من خلال عملية طويلة من التربية الدينية والاقتناع الأخلاقي" ويمضي (مالكوم) في تبديد شبهة الأصولية عن فكر علي عزت فيقول: "وتطلق الأصولية بطريقة مائعة على فكر علي عزت بأنه شديد العداء للثقافة والنظم السياسية الغربية .. وذلك بسبب انتقاده لأسلوب العلمنة المرتجلة والمتعسفة لتركيا في عهد كمال أتاتورك .. وهو أسلوب تبناه نظام كمال أتاتورك على أساس (أن كل ما هو إسلامي فهو رجعي متخلف ثقافياً، وبدائي) .. وبسبب تنديده بأولئك الذين يدعون أنفسهم بالتقدميين المتغربين ودعاة الحداثة الذين يطبقون سياسة مشابهة لسياسة كمال أتاتورك في بلاد أخرى بالعالم الإسلامي .. ويرفض مالكوم أن يكون هذا النقد من جانب علي عزت مبرراً لاتهامه بالأصولية .. ذلك لأن موقف علي عزت العام على حد قول "مالكوم" لا ينطوي بالتأكيد على رفض للحضارة الغربية حيث يؤكد "أن الإسلام من بدايته قد أخذ بدون تعصب العلوم وجملة المعارف الإنسانية التي ورثها من الحضارات السابقة .. ونحن لا نرى لماذا يتخذ الإسلام موقفاً مختلفاً من إنجازات الحضارة الأوروبية الأمريكية التي يتصل بها اتصالاً وثيقاً".

ويلفت "مالكوم" نظرنا في دفاعه عن فكر علي عزت إلى معالجاته لهذه القضايا في مصادر أخرى حيث يقول: "إن هذه القضايا قد قام علي عزت بمعالجتها معالجة أكمل في كتاب أهم هو كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" وهو الكتاب الذي حاول فيه أن يقدم الإسلام كنوع من مركب روحي وفكري لا يتجافى مع قيم الحضارة والأدب الغربيين .. ووصف المسيحية بأنها وحدة بين دين عظيم وأخلاق عظيمة .. ويحتوي على جزء خاص يمجد الفلسفة الأنجلوسكسونية والثقافة الأنجلوسكسونية وكذلك تقاليد الاشتراكية الديمقراطية وينتهي "نويل مالكوم" بحكمه على فكر علي عزت حيث يقول بكل وضوح: "ولا يمكن لأصولي أن يكتب مثل هذا الكلام".

إن الحملة الإعلامية على كتاب "الإعلام الإسلامي" وصاحبه قد استخدمت فيها الأساليب الدعائية الحديثة بذكاء ماكر وعلى نطاق واسع لتشويه قضية البوسنة ثم للانقضاض على المسلمين لإبادتهم بعد أن يكون المناخ في المنطقة وفي أوروبا كلها تشبع بالخوف والضغينة والعداء، حتى لا يتعاطف أحد مع الضحية عند ذبحها أو يهب لنجدتها ..

وهذا ما حدث بالفعل .. بل رأينا متطوعين من روسيا وغيرها من دول أوروبا الشرقية التحقوا بقوات التشتنك الصربية الإرهابية للمشاركة في استئصال المسلمين.

لقد أشيع مناخ عام أحكمت حلقاته ضد الكتاب وصاحبه وضد الإسلام والمسلمين .. وأصبح من العسير على أكثر الناس إنصافاً أن يحاول التصدي لهذا التيار الإعلامي الكاسح وأن يكشف عن أوجه الشطط والزيف فيه. وقد عرضنا – فيما سبق – لبعض المحاولات التي قام بها أكاديميون وصحفيون أجهدوا أنفسهم بحثاً عن الحقيقة وسط ركام الأكاذيب .. ورأينا كيف أن الدكتور "نويل مالكوم" قد اعترف في مقدمة كتابه عن البوسنة بمدى الصعوبة التي واجهته وهو يشق طريقه بحثاً عن الحقيقة في قضية البوسنة.

ولعل أخطر ما في "الصور المقولبة" أنها تتسلل إلي أقلام الكتاب وإلى عقولهم اللاواعية بطريقة تلقائية نتيجة تشبع المناخ الفكري بها .. فهذا مثلاً "ميشاجلينى" ينصف علي عزت لأنه التقي به وتعرف عليه عن قرب وتابع مواقفه وتصريحاته فلم يأخذ عليه شيئاً يشينه بل أثنى على استقامة شخصيته وحسن طباعه وأخلاقه وهي خصال يندر توافرها في رجال السياسة. ولكنه وهو في سياق عرضه لاتهامات الصرب والكروات لعلي عزت بالتخطيط لإقامة دولة إسلامية في البوسنة – ذكر أن علي عزت قد بين خطوط بناء هذه الدولة الإسلامية في كتابه دون أن يوضح – كما فعل غيره من الباحثين المدققين أن الأمر لا يتعلق بالبوسنة، بل اكتفي بتبرئة علي عزت من (الأصولية) على أساس أن هذا الوضع شيء مضى من زمن بعيد وأن الرجل قد تخلى عن أصوليته على حد زعمه.

ولا شك أن قوة تأثير الصورة المقوْلبة عن الإسلام والمسلمين تستند إلى الخلفية الثقافية الشائعة في وسط ما. وهذه الخلفية متوافرة في العالم الغربي المسيحي ولها جذورها التاريخية المعروفة، وقد أشار "إدوارد سعيد" في كتابه عن "الاستشراق" إلى عشرات الألوف من الكتب التي ألفت في الغرب على مدى القرون حتى اليوم تؤكد هذه النزعات المعادية للإسلام والمسلمين. ولكن ما هو شأن العرب والمسلمين الذين يفترض فيهم أنهم ينتمون إلى ثقافة مختلفة، أقل ما توصف به أنها غير معادية للإسلام والمسلمين. ألم يكن من واجبهم أن يتحروا حقيقة هذه الصور المقولبة قبل أن تنفذ إلى وسائل إعلامهم وتترد فيها..؟ الواقع يؤكد أن هذا التحري لم يحدث .. بل إن نفراً من الكتاب والمثقفين العرب تبنوا الموقف الغربي المعادي للإسلام والمسلمين فشاعت على أقلامهم تهمة "الأصولية" التي أخذوا يلصقونها بكل حركة أو فكر إسلامي باعتباره تطرفاً وتعصباً وإرهاباً أو مسانداً للإرهاب. وهم بهذا الموقف إنما يمثلون غلاة المتعصبين من المفكرين الغربيين، غير ملتفتين إلى وجود تيار آخر من المفكرين والباحثين الغربيين المنصفين، لهم رواية أخرى فيها تفصيل واعتدال وإنصاف تستند

إلى التحليل المنطقي للواقع ولا تنجرف مع التعصبات والأفكار المسبقة، والتشويه المتعمد للحقائق، وقد ذكرنا أمثلة على هذا التيار في كتابات: "جون ل. اسبوزيتو"، "تويل مالكوم"، "ميشاجليني"، "هـ. ت. نوريس" و" توماس أرنولد". فهؤلاء مفكرون احترموا الحقيقة واحترموا أنفسهم واتخذوا الموقف الذي يمليه عليهم الضمير العلمي رغم التيارات المضادة ذات القوة والسلطان في بيئتهم الفكرية.

ومهما يكن الأمر فإن السؤال يبقى: كيف تسللت "الصور المقولبة" عن كتاب "الإعلان الإسلامي" وعن مؤلفه المفترى عليهما إلى الإعلام العربي؟

إن أول صحيفة عربية – فيما أعلم – قد تعرضت لكتاب "الإعلان الإسلامي" كانت صحيفة "الحياة" التي تصدر في لندن. فقد نشرت هذه الصحيفة في عددها الصادر في 16 سبتمبر 1992 ملخصاً للكتاب من إعداد "جميل روفائيل" مندوب "الحياة" في بلجراد، تحت عنوان: "البيان الإسلامي" .. نهج علي عزت بيجوفيتش في إقامة الدولة الإسلامية الموحدة". ومن الواضح أن هذا الملخص يعكس فهم "بلجراد" للنص .. وبه أخطاء فكرية قد ترجع إلى ضعف الترجمة أو إلى الاقتباس المباشر من تفسيرات النص المحرف الذي روج له الصربيون في عاصمتهم "بلجراد" .. ولا أظن أن المندوب الذي ترجم ولا المحرر الذي تناول النص قد كلفا نفسيهما بأي بحث أو جهد للتحقق من صحة النص ونسبته إلى صاحبه.. ولعل هذه كانت البداية الخطأ التي قدم بها كتاب "الإعلان الإسلامي" إلى الصحافة العربية .. ومنه تسربت "الصورة المقولبة" عن علي عزت وكتاباته بصفة عامة .. فما أن يرد ذكر اسمه حتى تلحق به لازمة محتمة "الدولة الإسلامية الموحدة" سواء بمناسبة أو بغير مناسبة.

قرأت في عدد "الأهرام" أول مارس 1994م تعليقاً شيقاً للكاتب اللامع أنيس منصور على كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" ويتميز التعليق برشاقة الأسلوب وحيوية التعبير والكلمات القليلة الكاشفة، وهي خصائص يتمتع بها أنيس منصور في كتاباته .. إنه يبدي إعجاباً واضحاً بالكتاب وصاحبه .. ومع ذلك وجدت في سياق التعليق عبارة يصف بها هدف المؤلف تقول: "وله هدف هو إقامة الدولة الإسلامية" .. واندهشت لإقحام هذه العبارة في سياق لا يبررها وعلى كتاب لا يناسبها .. خاصة أن التعليق نفسه يلخص موضوع الكتاب في آخر عبارة وردت به تقول: "إن قراءة هذا الكتاب متعة فلسفية ونشوة إسلامية .. فأنت أمام بطل إسلامي عظيم الاحترام .. وهو من بين مئات ملايين المسلمين يستحق لقب المفكر الإسلامي أو المتفلسف الإسلامي وإنه لكذلك .. وأصح ما يوصف به موضوع الكتاب أنه فلسفة إسلامية. فمن أين جاءت عبارة "وله هدف هو إقامة الدولة الإسلامية"؟ إنني أستبعد

أن يكون كاتبها هو أنيس منصور نفسه، وأرجح أنها إضافة تبرع بها محرر ذكي أو جامع حروف مثقف انزلقت على أصابعه "صورة مقولبة" فألصقها بالتعليق دون وعي منه.

ومهما يكن الأمر فإن ما ذكرناه لا يعبر إلا عن أهون الجوانب فيما يتعلق بتأثير الصورة المقولبة على الصحافة العربية، فقد يجتمع لدى الكاتب مع تأثره بالقولبة الغربية المعادية سوء قصد أو نزعة خبيثة فنراه يقحم رأيه الخاص في قضية معينة في سياق لا يبرر هذا الرأي ولا يتوافق معه.

سقت لهذه أمثلة صارخة الدلالة في كتابي عن البوسنة، منها نموذج لكاتب صحفي يقدم عرضاً لكتاب "هـ. ت. نوريس" (الإسلام في البلقان). أباح هذا الصحفي المغرض لنفسه أن يستغل ما يقرب من ربع مساحة مقالة للهجوم على شعب البوسنة المسلم فيشكك في إسلامه ومواقفه وقضيته ويسخر من المسلمين الذين يتعاطفون معه في أنحاء العالم. ولكي يخدع القارئ لم يشأ أن يعلن أن هذا هو رأيه الشخصي بل تركه يتوهم أن هذا كلام "هـ. ت. نوريس" مؤلف الكتاب، معتمداً على حقيقة أن القراء العرب لن يهتموا بقراءة الكتاب مكتفين بهذا العرض المشوه لمحتواه.

ولما كنت أعرف عن "توريس" أنه باحث موضوعي مدقق وأنه ارتحل وعاش في منطقة البلقان وأجاد لغتها واستوعب تاريخها وثقافتها وعاش مشكلاتها وتفاعل مع قضاياها – استبعدت أن يحمله الهوى إلى هذا المنزلق. فلما جئت بكتابه واطلعت عليه تملكتني دهشة شديدة لأن الذي كتبه الصحفي لا وجود له في الكتاب ولا يمكن استنتاجه من كلام مؤلفه. ولقد رأينا في هذه المقدمة كيف أن "توريس" كان من أكثر الكتاب إنصافاً لفكر علي عزت ودفاعاً عن كتابه "الإعلان الإسلامي". ولكنها جرأة غريبة يستخف بها بعض الصحفيين العرب عقول الناس، وهي دليل على انعدام الأمانة عند بعض الكتاب الذين يحملهم الهوى على تجاوز الحقيقة ويستثمرون التلاعب بعقول القراء.

حول موضوع الكتاب:

يحدد المؤلف في يشتمل كتاب "الإعلان الإسلامي" على مقدمة وثلاثة فصول وخلاصة. مقدمته الجمهور الذي يتوجه إليه بالخطاب، ويقرر أن الكتاب لا يخاطب غير المسلمين ولا الذين يشككون في تميز الإسلام عن النظم أو المدارس الفكرية الأخرى .. إنما يخاطب المسلمين الذين يدركون حقيقة انتمائهم للإسلام .. والذين تحدثهم قلوبهم حديثاً صريحاً واضحاً عن طبيعة ولائهم الإسلامي .. ومهمة الكتاب بعد ذلك أنه يكشف لهم النتائج التي تترتب على هذا الموقف الذي التزموا به.

وفي الفصل الأول يشخص المؤلف ظاهرة التخلف بين الشعوب الإسلامية، وفي الفصل الثاني يتناول طبيعة المشروع الإسلامي أو النظام الإسلامي الذي يدعو إليه ويوضح أبعاده وعناصره، وفي الفصل الثالث يعالج المشكلات الأساسية التي تواجه النظام الإسلامي.

يرى علي عزت أن النهضة الإسلامية تصطدم بنوعين متضادين من الناس ولكن بينهما عنصر مشترك و هما: المحافظون الجامدون على الأشكال القديمة، ودعاة الحداثة الذين يتطلعون إلى الأشكال الأجنبية .. أما العنصر المشترك بينهما فهو النظرة القاصرة أحادية الجانب إلى الإسلام، حيث يعتبرانه مجرد دين، بمعنى أنه مقتصر على الحياة الروحية للفرد، ولا شأن له بتنظيم الحياة الدنيا.

ويلاحظ علي عزت أن دعاة الحداثة هم الذين يهيمنون على الحكومات وعلى التعليم والحياة العامة في البلاد المسلمة .. ويكشف لنا عن سمة تميزهم وتيسر لنا التعرف عليهم: فهم يفخرون بما كان يجب أن يخجلوا منه، ويخجلون مما كان يجب أن يفخروا به .. لقد جلبوا إلى أوطانهم أفكاراً ثورية أجنبية و"برامج إصلاح ومذاهب إنقاذ موصوفة لعلاج كل المشكلات"، فإذا تأملنا ملياً نجد – لدهشتنا – نماذج لا يصدقها عقل في قصر نظرها وارتجالها.

ويقارن علي عزت بين فلسفتي الإصلاح التي تبنتها كل من اليابان وتركيا "تحت نظام كمال أتاتورك"، ويكشف لنا عن الأسباب التي جعلت اليابان تنجح وتنطلق إلى قمة المجتمعات المتقدمة بينما انحطت تركيا إلى دولة متخلفة من دول العالم الثالث وينبه – في هذا المجال – إلى حقيقة ما تعانيه الشعوب اليوم بسيرها على النموذج التركي في الإصلاح، حيث ضاعت هويتها وفقدت استقلالها وأصبحت عالة على الدعم السياسي والاقتصادي لدول الغرب.

وينتهي علي عزت إلى نظرية بالغة الأهمية حيث يرى أن جميع نجاحاتنا وإخفاقاتنا في الأخلاق والسياسة إنما هي مجرد انعكاس لفهمنا للإسلام وللكيفية التي طبقناه بها في الحياة: "لقد كان ضعف تأثير الإسلام في الحياة العملية للمسلمين مصحوباً دائماً بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية .. وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق .. كأن هذا التطابق هو المصير الذي لا مناص منه للشعوب المسلمة .. وأحد قوانين التاريخ الإسلامي نفسه".

ويرتبط بهذه النظرية تأكيد علي عزت أن القرآن "هو الفكرة المركزية في الأيديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية" ويرى أن إشكالية القرآن في المجتمعات المسلمة ترجع إلى أن هذه المجتمعات تتعلق به تعلقاً عاطفياً ولكنها لا تستطيع تطبيقه في حياتها .. وهنا يكمن

الفصام بين الكلمة والفعل في العالم المسلم .. وينسب ظواهر الفساد والانحراف والسطحية والتنطع والتخلف جميعاً إلى هذا التناقض الأساسي بين حماسنا المشتعل تجاه القرآن وبين الإهمال الكامل لمبادئه في الممارسة العملية.

ويرى علي عزت أن أسوأ الملامح في أوضاع المسلمين العامة تتمثل في تلك الفجوة المأساوية بين النخبة المهيمنة وبين الشعوب في البلاد المسلمة .. وأن افتقاد التوافق بين عناصر الفكر والقيادة من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى..

"يخل بالشرط الأول لأي إنجاز عظيم" .. ويرجع السلبية واللامبالاة لدى جماهير المسلمين إلى وجود هذه الفجوة .. ويرى أن أي برامج إصلاح لن يكتب لها النجاح أبداً إذا كانت معادية للإسلام متجاهلة لمشاعر الجماهير المسلمة .. وستجد النخبة من دعاة الحداثة "أنهم يضربون برؤوسهم في صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة من جانب الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية العظمى من الأمة".

"المجتمع الإسلامي لا يبنى ولا يتم إصلاحه بالقانون أو باسم القانون ولكن باسم (الله) وعن طريق تعليم الإنسان المسلم وتربيته".

ويلفت علي عزت النظر إلى ظاهرة متفشية في المجتمعات المسلمة حيث تتكاثر القوانين وتتشعب وتتعقد .. هنا يحذرنا بأن هذه علامة أكيدة على وجود شيء بالغ الفساد في المجتمع .. ويرى في هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء بتعليم الناس وتربيتهم .. ذلك لأنه "عندما يتجاوز الفساد في بيئة ما حداً معيناً يصبح القانون عقيماً".

يقوم النظام الإسلامي – كما يراه علي عزت – على ثلاثة عناصر لا يمكن الاستغناء عنها و هي: الاستقلال والحرية والديمقراطية .. والاستقلال الحقيقي – عنده – هو استقلال روحي وفكري، وعلامة على أن شعباً قد وجد هويته واكتشف قوته الذاتية.

وينبه علي عزت إلى حقيقة هامة وهي أنه كلما ابتعد نظام ما عن الإسلام كلما قل دعم الشعب له، ومن ثم يجد النظام نفسه مضطراً للبحث عن دعم خارجي .. فالتبعية التي تغرق فيها هذه النظم ليست إلا نتيجة مباشرة لتوجهاتها المعادية للإسلام .. وتتفاقم الأمور عندما تشعر هذه النظم بالمقاومة والعداء من جانب الشعب، فتلجأ إلى العنف لتمرير سياستها بالقوة.

ويحذر علي عزت من الانزلاق نحو وهم "الغاية تبرر الوسيلة" فقد أدى هذا المبدأ إلى جرائم لا حصر لها .. ولا أحد يملك الحق في تشويه وجه الإسلام أو الإساءة إلى النضال الشريف باستعمال العنف الجامح .. فالغاية النبيلة لا يمكن الوصول إليها بوسائل دنيئة".

ويعارض معارضة شديدة الاستيلاء على السلطة بالقوة بحجة أن يقوم النظام بعد ذلك ببناء المؤسسات المناسبة .. وبتربية الشعب تربية دينية وأخلاقية وثقافية لبناء مجتمع إسلامي، فهو يرى أن هذا "مجرد غواية" وأن التاريخ لا يذكر لنا أي ثورة حقيقية جاءت عن طريق السلطة ولكن عن طريق التربية .. وكانت معنية في جوهرها بالدعوة الأخلاقية".

الترتيب الصحيح – عند علي عزت – أن يقوم المجتمع الإسلامي أو لا ثم يأتي بعده النظام الإسلامي وليس العكس.

وفي مجال الوحدة الإسلامية يؤكد علي عزت أن الإسلام بطبيعته وروحه أقدر على توحيد الدولة الإسلامية برباط أقوى من روابط المصلحة التي توحد الدول الأوروبية، فالإسلام لا يقيم الوحدة بين المسلمين على المصالح فقط بل يجمع إليها عوامل الوحدة الروحية والمبادئ الأخلاقية والرسالة الإنسانية في إقامة العدل بين الناس .. وتلك هي (الأمة الإسلامية)، وليس معنى ذلك بالضرورة "الدولة الإسلامية العالمية الواحدة" كما فهم البعض خطأ أو كما أراد البعض أن يوهمنا بأن هذا هو ما يدعو إليه علي عزت في كتابه "الإعلان الإسلامي".

لقد عالج علي عزت هذه النقطة بوضوح تام في الفصل الثالث تحت عنوان: "الجامعة الإسلامية والحركة القومية" حيث تحدث عن "وحدة إسلامية كبرى" ويفسر لنا علي عزت طبيعة هذه الوحدة فيقول:

"... نحن نعتقد أنه لا يوجد ما هو أقرب إلى طبيعة الأمور وإلى الواقعية من مطلب اتحاد المسلمين بشتى أشكال الوحدة ليكونوا أقدر على معالجة مشكلاتهم المشتركة .. وأن يتجهوا بصورة تدريجية نحو بناء مؤسسات اقتصادية وثقافية وسياسية – تتجاوز القوميات– لكي يحققوا التنسيق والعمل المشترك في هذه المجالات الهامة".

ويرد علي عزت بقوة على أدعياء الواقعية من المسلمين الذين يرون استحالة تحقيق هذه الوحدة حيث يقول: "..الحق أن هذه الواقعية مصدرها الجبن والخضوع لسطوة الأقوياء في هذا العالم .. إن منطق هذه الواقعية يقول: ينبغي للسادة أن يظلوا أسياداً وأن يبقى العبيد عبيداً .. إن أدعياء الواقعية عندنا غير مؤهلين للإيمان أو العمل، وهذا هو سر واقعيتهم المهينة عندما يقولون إن وحدة المسلمين حلم لا يمكن تحقيقه فإنهم إنما يعبرون عن عجز يستشعرونه في أنفسهم.. فالاستحالة ليست في العالم الخارجي بل في صميم قلوبهم.

ومن المزاعم التي أثيرت حول فكر علي عزت أنه يرفض كل ما هو غير إسلامي في مجتمع المسلمين .. ولكن علي عزت – بعكس هذا الزعم – ينظر بإمعان إلى تجارب النظم الأخرى في العالم ويرى فيها أشياء نافعة وأخرى ضارة .. ولذلك فهو يفرق بين ما هو "غير

إسلامي" وما هو "ضد إسلام" وهو يرفض كل ما هو "ضد الإسلام" ولكنه لا ينكر الأول بل ينفتح عليه برحابة عقل وسعة صدر حيث يقول: "إذا تحررنا من هوس الحتمية التاريخية والتفتنا إلى وسطية الإسلام يمكننا دون تعصبات أن نكتشف ما تنطوي عليه هذه الأنظمة القائمة من جوانب الخير والشر لا باعتبارها رأسمالية أو اشتراكية، ولكن باعتبارها تجارب إنسانية معينة تمارسها المجتمعات المعاصرة". ويمضي لتعميق هذه الفكرة فيقول: "إذا نحن وضعنا الشعارات والمصطلحات المضللة جانباً وأخذنا في حسابنا فقط الحقائق التي نراها ماثلة أمامنا فيجب أن نعترف بالتطور الهائل في العالم الرأسمالي الذي تكشف عنه حيويته وقدرته على دفع عجلة العلم والاقتصاد إلى الأمام، إلى جانب أنه استطاع أن يتيح درجة أعلى من الحرية السياسية والأمن القانوني" ومن ناحية أخرى "لا يمكننا أن نتغاضى عن إنجازات النظام الاشتراكي خصوصاً في مجال تعبئة الموارد المادية وفي التعليم وفي القضاء على صور الفقر التقليدية .. وفي نفس الوقت "لا يسعنا أن نتغاضى عن جوانب مظلمة وغير مقبولة في التقدمات الرأسمالية والاشتراكية ولا أن نتجاهل الكوارث الكبرى التي تزلزل كلاً من النظامين من وقت لآخر". ويخلص علي عزت من هذا كله إلى أن الانفتاح العملي للإسلام في مجال حل المشكلات يجعله في وضع متميز يمكنه من دراسة التجارب الإيجابية والسلبية للآخرين دون تعصبات" .. وبالتالي الانتفاع بأفضل ما في هذين النظامين..

ويذكرنا علي عزت في النهاية بحقيقة هامة وهي أننا يجب ألا نستهين بقدر الأخوة بين المسلمين ولا بالعاطفة القوية التي تربطهم في جميع أنحاء الأرض بالقرآن، والتي تدل على أن العالم المسلم لم يمت وإنما لا يزال حياً ينبض بالحياة .. "فحيث توجد مثل هذه المشاعر لا يوجد موت"..

إن العالم المسلم ليس صحراء مقفرة وإنما هو تربة عذراء في انتظار يد الزارع. وبفضل هذه الحقائق تصبح مهمتنا واقعية قابلة للتحقيق.

إن مهمتنا تتمثل في تحويل هذه المشاعر الكامنة إلى قوى فعالة مؤثرة. فالإخلاص للقرآن لابد أن يتحول إلى تصميم على تطبيقه، وأن تتحول الجماعة الإسلامية القائمة على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة .. وأن يتحول حب الإنسانية إلى أفكار واضحة لتصبح هي المحتوى الأخلاقي والاجتماعي للقوانين والمؤسسات".

وهكذا تتعاظم في فكر علي عزت مكانة القرآن في صميم النظام الإسلامي، كما تتعاظم قيم العدل والإنصاف والإنسانية .. ويرتفع فكره فوق الأحقاد والتعصبات.